افتعال المأساة !

بقلم محيي الدين محمد

تقف الرواية الروسية موقفاً مفتعلاً في تقرير ما هو قضية بالنسبة للانسان ؛ فهي ترغمه ، وهو لا يزال عبداً ، على منازلة ما هو واقع خارجي ، مفترضة ان المعركة ليست الا الصراع ضد الاشياء .. ليست إلا برنامجاً مقرراً ومهذباً ضد فجاجة الاشياء .. مهتمة بتطوير ما هو بربري الى ما هو منقح ، وصالح للبشر ..

ان الرجال ينتقلون من مرحلة الاقنان الساكنين ، بطفرة سريعة الى مرحلة الاقنان المكافحين — فهم يصبحون نفس المجموعة التي تكرع أشنع الفودكا ، وتسبّ بأفحش السباب ، وهي خلة من خلال الروسي الصميم ... انهم يراوغون السلطات ، ويقسمون برأسي القيصر ثم الجمهورية ولا يحبون ما هو غير روسي .. وبالنهاية يصبحون ما كانوا ، ما كان (موجيكا) قذراً .. يصبح (موجيكا) نظيفاً ، كما انتقل الريفي الاميركي من أذرعة الثور الى عجلات الجرار الفورد ، ومن كوخ حقير على هضبة الى جوسق رائع فوق طريق ساحر ، ولكنه ظل في نفس وعي اجداده طبقة « الكاوبوي » ، فاذا كان الاميركي خالقاً لمأساة بينه وبين ما هو عالم خارجي فانه لا يتخذ من صراعه مبدأ ونظاماً ، وهنا مأساته الاشد قتامة ، فحين لا يمكن المبدأ ان يشغله وان يسيره ، بضمان قوته وراحته ، فهو يبتكر سباق الضفادع ، متخطياً (روما) المبتذلة ، وبرقص « السوينغ » و « المامبو » ، مشوهاً كلاسية (ماهلر) بايقاع (جرشوين) المتشنج ، ورسوخ (فورتفنجلر[1]) بسخف (إكساڤيار كوجات[2]) عازفاً عن كل ما هو عقلي وعميق ، راضياً عن البذاءة والسطحية ، وكل ما هو غير ناضج وسخيف ..

ان تحطيم اليورانيوم ، واستحداث الماء الثقيل ، ونشر الاوتوماشين على اوسع نطاق ، ليس هدفاً للبشرية ينبغي التوصل له اولاً ، وعدم اسقاطه ؛ اذ ما كان في البدء طريقاً تجتازه الرجال يصبح الان ، وبقانون ، آخر ما يصل اليه الادراك البشري من (يوتوبيا) صالحة للتطبيق ..

ان ما كان تجربة حدثت في صحارى مصر ، وفارس ، والصين ، وفلسطين ، وبلاد العرب ، ما كان تجربة يشترك فيها الآن ملايين البشر من كل جنس ، يطبق الآن ، بصورة علمية في اوسع اقطار الارض واغناها ...

تشق التربة وتكشط غابات الصنوبر ، وتحول الانهار وتصبح النساء طبيبات ، وينظم العمل بصورة سهلة ورائعة ، وما كان يستثمر ويسرق بواسطة أشباه الالهة ، اصبح يوزع بنظام على البشر .. بنظام وصدق .

ولم يفلح العلم ، ولا الثقافة ، ولا القانون ، في جعل الفرد الروسي يبدأ الكفاح من ذاته ، واعياً مأساته الخاصة ، ووجوده ، خالقاً حريته ومسئوليته ومنظمها .. والقوة التي منحتها تجربة الصحراوات ، للارادة المطلقة ، كعامل خالق ومدبر ومسير للبشر وواضع نظام لا يستطيع انسان ان يخرج عليه ، هذه القوة الميتافيزيقية قد انتقلت الى صميم التجربة الثانية بصورة ارادة غير مطلقة لها نفس حق القوة المطلقة واستحالة معارضتها ، بصورة حكومة ..

وقد اختلفت وضعية الفرد الروسي عن وضعيته اثناء حكم القياصرة ، (فلوباخين) لتشيخوف ، ليس هو نفسه (ليتشنكي) عند سيمونوف ..

فهذا فرد رفض الحتمية الميتافيزيقية [تجربة الصحراوات] وقبل حتمية (الفيزيقيا) . انسان رفض ان يكون نفسه ، ورفض ان يستنبت ما هو حريته الاصيلة ، مفضلاً ان يساق كقطعان الماعز وممتنعاً بكل اباء عن رفض

« ليست القضية قائمة بين الانسان والعالم الخارجي ، كما تفترض الرواية الروسية ، او بين الانسان والعلم كما يؤكد [البلور المحرق]. ان القضية هي بين الانسان ونفسه ، اولا كحرية ، ثم هي بين الانسان والاخرين معزولاً عن كل تأثير مستا فيزيقي أو علمي ...»

م . م .

١ قائد موسيقي الماني ، ثابت ، عميق ، مثقف . ٢ قائد موسيقي اميركي يصطنع هزات معينة ، وتبدر منه حركات سطحية بقصد اثارة السامعين ...

القيم المسبقة ، وخلق قيم خاصة به وحده . انه انسان ميت ... بالرغم من كل قدراته التي تفوق قدرات البشر الاخرين* ؛فقد جعلوا منه رفشاً ، ذلك الانسان الروح ... ذلك البشري الرائع ، يعدونه منذ البدء كي يسهم بانهاض مزارع الدولة ، وتربية خنازير اشد سمنة من خنازير الدول الاخرى ، وأضحى التعليم ضرورة ، كي تزداد القدرة على تحسين انواع الغلة ، واستنبات ما هو اصلح من اصناف الكرز والتفاح والقطن ، ولكن (ألكسندر فاسيليفتش) لا يتقدم خطوة واحدة ، فبعد ان وسد رأسه خرقاً بالية على ظهر فرن ، اصبح ينام فوق سرير بوسائد حقيقية ، وبقيت القيمة الانسانية معلقة في صلب ارادة البشر ، فما دام الانسان يطلب العيش في رغد ، وان يكن بدون وعي ، وبدون حرية ، فقد مُنحت له رغباته ، وحاجياته ، واقتص له من كل عداواته ، فهو يعيش الان بريئاً كالطفل ، وادعاً كالبقرة ، وإن كان ميتاً كحجر صوان ..

واصبحت المأساة ان يُمنع عنه ما هو ضروري من مأكل وملبس . ان المأساة تصبح ان يقذف به في صحراء جليدية . ان يعزل الانسان . ان يصبح وحيداً .. كان هذا هو العقاب الذي تباشره السلطات ، ان تحرم عبداً من حقوقه التي لم تكن بالفعل اكثر حقيقة وتمثلا ...

اصبحت المأساة، لا أن تُنزع عند الفرد حريته ، ويصبح وجوده اسخف من وجود حزمة اعشاب ؛ بل تصبح المأساة ان توضع امكانية نماء وعيه قريبة من التحقق . ففي تلك الصحراء من الجمد الثقيل ، يُترك الانسان لنفسه، منزوعة عنه كل القيم التي كانت في الماضي ترتب له مساره الرتيب ، وتهيئ ما هو خط مرسوم وواضح له .. فلم يكن غريباً اذن ان تخرج الثورات الروسية من تلك الصحراء .. فارض العزلة تتيح للفرد ان يبدأ التفكير من صلابة الاشياء حتى ذاته .. من صلته الغامقة بالاحجار والعشب ، وبقية مظاهر الطبيعة حتى وعيه العميق ؛ ووضعه في الكون .. (وكانت سيبيريا)هي كل المأساة بالنسبة للفرد الروسي، لانها تؤلف ما للعزلة فيه من تأثير مخيف على الوعي الفارغ،الذي يعطي كل اهتماماته لصلاته بالاشياء والآخرين على مستوى ضحل ومسائع : ان يعيش الانسان كسدادة لزجاجة جعة ، يؤدي ما للسدادة من عمل ، ثم هو لا يعرف ان يفعل بعدها شيئاً على الاطلاق ، وهو لا يمكنه بحكم تركيبه الخاص ، ان يساهم في اي عمل آخر؛ فهو مدفوع برغمه ، تحكمه وتصنع له وجدانه واقواله وتصرفاته واختياراته ، قوانين خلقت من قبله ملايين البشر ، وهي تصنعهم في كل يوم،غير معنيّة على الاطلاق بنسخهم المتكررة، والحادثة على مشابهات لا فروق بينها ...

فما يهتم البطل في الرواية الروسية الكلاسيكية والمعاصرة الا بترديد صيحات معينة،فهو إما ان يكافح في سبيل الآخرين، كابطال (جوركي)برغبة إحلال طبقة معينة موضع طبقة اخرى بطريق ثورة معينة ، وإما ان يقاسي البطل وحده آلاماً بتأثير جراحات داخلية ، امام صلابة العالم الخارجي فتنزف دماؤه في صمت ، وبغير اشراك الآخرين، ثم يموت في هدوء ، كما ينحني شيخ ببسالة ، بعيداً عن نبتة يتعهدها . ثم ينتهي بلا صراخ ...

وكان نضوج (دوستويفسكي) الباطني مؤهلاً له كي يعمق تجاربه الشعورية،وان يلاحظ بدقة مدى ارتطام الوعي بالجفاء الخارجي ، مكوناً ذعر الانسان مما هو ليس ذاته ...

كان يشعر دوماً بان (سعادة تنتظره)[1] فتنتعش روحه، ويسرع يعدو على السلم لاهثاً كي .. ولكنه انتظر بلا امل لانه (لا بد ان في اعماق الامور سراً ... هذه الازمات المفاجئة التي تعصف بهذا القلب الطافح الماً مراً ، لا يمكن ان تكون بلا سبب ...) [2] ان (دوستويفسكي) يرفض القاعدة التي يقبلها من بعده (جوركي)، يرفضها ليثبت نظاماً آخر، يقوم على مسطحات سوداء ومريضة الى حد نسيان الالم نفسه؛ ان عذاب ابطاله يفوق العذاب العادي ، لانه فسيولوجي اولاً ثم هو ميتافيزيقي ثانياً ... وكل الذي يقبله الانسان من عذابات وقتية يدقق بها ذلك المعذب، ويدفنها في صلب أبطاله آلاماً تفوق طاقة البشر،وتؤلف بما لها من قتامة،طابعاً بفرده من الاحزان ... طابعاً له من السُمك ما يستحيل لبشري ان يتصور مكنة إنسانية تستطيع خزنه في باطنها بدون ان تفكر في الانتحار ...

ان (دوستويفسكي) يخلق من الالم نظاماً جبرياً مطبقاً على البشر برمتهم، ولا يستطيع ان يعتقد بنسبية هذه الحقيقة

* ولذلك سبب : فحين تلغى عن الانسان ذاتيته وكينونته ، فانه يصبح طاقة ، شيئاً يدار كيما تتوالد قوى تخلق الدولة العظيمة على حساب فرد . اثنين . ثلاثة .. حتى ٤٠ مليوناً ..

١ و ٢ نيتوتشكا (دوستويفسكي).

التي ينظر بها لكافة البشر . وان ما يدهشنا حقاً هو ان نجد نقيضاً له في الادب الروسي ، بدون ان نقلب صحيفة في (الانسايكلوبيديا) هو .. (تولستوي) ؛ فقد آمن هذا الانسان بامكان استعمال وسائل معينة لتطبيق الخير الكلي ، وبذلك جعل المأساة : ان تهرب الجموع من السطوة الكنسية . ان تحاول شق طريق لها وسط عشرات الأفكار الرمزية والسخيفة ، والتي تحاول ان تجعل منه انساناً حجراً ... بقصد ان يحيا بشره وفق منهج اخلاقي معين . ثابت . أبدي . ثم هو ضروري ، بلا اختيارات ، بلا مسؤولية تصنع منه — ذلك الانسان الفج — فرداً رائعاً يستطيع ان يعيش بمنجاة عن علة اولى ، وقانون أزلي...، وقد كان انسان (تولستوي) متواكلاً، قدرياً، صالحاً ، يعيش حياة مكتوبة ومرسومة له في التوراة ، بنموذج واضح باهر :

ان يحمل عذابات الآخرين ، وان يموت شهيداً .. كما مات معلمه ..

ورغبة في خدمة (البشرية) فان (تولستوي) يصيّر البشر جمادات ، عازلاً عنهم إرادتهم الخاصة ، وثباتهم الخاص. انه يكدّسهم في (النظام . الطاعة . التعبد ..) ان تولستوي (انا كارنينا) والذي كاد يلمس بصورة شكلية ، نظام العالم الفاسد ، والذي دفع بطلته الى تلك النهاية التي كانت خلاصاً من سلسلة آلام واوصاب هائلة ، وغير محتملة.. ذلك البطل يصبح وشيكاً تولستوي (دينياً ..) ! الانسان الدورق، الانسان الشفاف ، الانسان الذي اصبح (لا انساناً). فهو يموت كي يضع حرفاً من حروف الحقيقة الخالدة، وهو يواجه سيلاً من الاسئلة بتلاوة عبارة من (عظة الجبل) وهي منجزة ومهيأة له كثمرة ..، فاذا استمرت مأساة (تولستوي) في الزمن ، فهي تعيد من غيرشك مأساة التجربة الصحراوية ، والتي خلقت لها من العبيد اضعاف أضعاف من نزعت عنهم قيود الجاهلية ، ولقد كانوا احراراً ، بدرجة ضئيلة كان لكل فرد إلهه الخاص ، وكان مستعداً ان يضحي به من اجل وجبة . اما البشر الجدد ، بشر العقائد ، فقد كانوا يقدّمون طعاماً للسباع والقهود ، وكانوا يُصلبون ، ويحرقون في كل مكان ، وما استطاع فرد ان يتخطى ضيق افقه ، فيلقي في نفس اللهيب برقمه المكرور ، وان ينزع عنه نفس الرداء الذي خلق منه شهيداً ..

ان انتفاء الوعي الذاتي عند الفرد يخلق فيه البطل الغيري، الذي يكافح من اجل الاشياء، لوضع قانون معين بدل آخر. ان انساناً بلا وعي قمين بصورة مؤكدة لان يأتي ما من شأنه ان ينزع عنه بشريته ، فهو يقف امام الموت غير هياب، مبتسماً بصورة خلابة ، انه ليس (فلاناً) الذات ، بل هو المسيحي رقم (٥٣١٦٨٠) ! فلو احرق حتى العظام ، لنقص العدد واحداً .. ولبقي النظام !

وكان هذا سبب تلك الكارثة التي عُزيت لـــلاباطرة الرومان ، معذبي الشهداء ! فلو كان الفرد بسبيل حقيقة مرتبطة بذاته ، حقيقة حقة ، اكتشفها وحده ، لاصبح لزاماً عليه ان ينزع جلد البطل ، كي يستعيد جلد الذات، كما وقف (جاليللو)، الذي يرفض الناس منحه لقب بطل، موقفاً رائعاً حين وافق ان يثبت في مقدمة مؤلفه، مقدار ما في حقائقه من (احلام ومجرد تخمينات ...) !

وكان يريد ان يعيش ، لان الحقيقة هي التي كافح من اجلها بنفسه ، لان ما اكتشفه ليس الا نفسه ممتدة في الابعاد الفضائية، ليس الا ذاته فُتحت على ضياء لا بد ان يُفتح يوماً للآخرين ... ان الحقيقة التي اكتشفها ، وان كانت ملكاً للبشر من بعده ، فهي الآن ليست الا حقيقته (كجاليللو) نفسه ، اجتذبها من قلب فراغ الكون ، فاصبحت في كيانه، وتخللت اعصابه ، وألياف بدنه ، ومخ رأسه ..

يجب ان يعيش كي يمنح الاجيال نفسه ، لا ان يموت كما تموت الجرذان ، فتموت معه حقيقته ..، وليس ما يثبت لنا ان موقف (جاليللو) في التاريخ كان موقفاً ذاتياً . رائعاً ونبيلا.. * الا رفضه لبطولات سقراطية، زائفة ورخيصة.. بعكس مواقف اولئك (الشهداء) والذين اقيمت لهم كل تلك الانصاب والتماثيل، ولا تزال تقام لارواحهم الادعية والصلوات.

ان انسان (تولستوي) مصنوع من الحقائق الجاهزة، فليس اقل من تنحيته جانباً فمغزى الصراع عنده هو نقل القطيع الآدمي ، كما هو ، من احراش البربرية الاولى الى الاستسلام الكامل بما لنظام الاعتراف، ومحو الخطايا من قداسة وامان. واصبح انساناً (نبياً) يبتهل لله والملائكة ، ونُزعت عنه فروة البطل الانسان، شارب الفودكا، المجدّف والخبيث..

* فتأملوا ... لو مات ذلك الشيخ بتأثير بطولية معينة ، اضطرته لها تلك العصـــابة ، أكان ممكنـــاً لرقاص (فوكل) أن يثبت دوران الارض برغم معارضات (زوينجل) الحادة ..؟!

فاذا انتقلنا لانسان (جوركي) فهو عامل بسيط وفقير ، وما يفكر به ملايين العمال من امثاله يفكر به هو ، وقد آمن بمعتقد عام ، يجب ان يثور من اجله ، وهو امكان انتقال الثروات من قمة الهرم الاقتصادي الى قاعدته ، بطريقة مقنعة للملايين الجوعى ، الناقمين على كل ثراء .. فبطله انسان يائس من العالم القديم ، يصبو للغنى المتوقع ، واساس بلائه يكمن في محض وجود الارستقراطية والرأسمال ، فهو بطل يحارب المظهر الخارجي ، وهو يقنع بسرور ان ينتقل كل البشر الى مرحلة العامل الاميركي مالك السيارة والجرار ...

فمأساة بطل (جوركي) لا تختلف عن مأساة بطل (جوجول) الذي يبحث وينقب عن حل معين بدعوى تغيير وضعية الطبقات ، بتأثير قالب مصنوع وجاهز ، ثم هو مهيأ منذ سنوات وقابل للاستعمال في اي لحظة ! فحتى المغزى الرائع للثورة ، يصبح بيد اولئك الابطال (روتينا) عادياً يجتذب من اعلى الرفوف المتربة ، ثم يعمل بوحيه ، كتلك الاوامر المقدسة التي انبثقت من صحراء سيناء ...

ان البطل لا يترك لحريته في تقرير اندفاع معين في طريق ثورة يختارها ، انه يحشر في حقيبة كقطعة حجر ، مع جمع آخر من الابطال .. ثم يقذف بهم في وجه الاعداء . انه يتألف من جملة ارقام ليس لها سر .. وهو مبسوط لكل انسان ، معد لكل اوامر سابقة عليه ، كمكبر الصوت الساكن في حدائق (هايدبارك) والذي ليست له خاصية معينة ، غير قدرته على تضخيم الاراء والشتائم ، وهو مستعد لتلقي رأي اشتراكي فابي ، ورأي استعماري ، ورأي شيوعي ... بالتتالي ، وليس له ان يختار بينها ابداً ..

ان بطل (جوركي) انسان ساخط يود مصارعة العالم الخارجي [جئت لهذا العالم كي اختلف معه[1]] وكل مشكلته في ان دنيا الصلب والحجارة هذه ، لا تستطيع ان تهبه كل امنياته ، ولا يمكنها ان تحقق العدالة بين البشر ، والذين يجب ان يفرضوا نظرتهم الخاصة على عالم الحجارة ذلك .. كي تستقيم لهم حياة هادئة ، مريحة ، وقد سبق ان نظم نفر آخر (يوتوبيا) خاصة ، اساسها حياة ورعة وتقية ، لم تتحقق ، كما يجب ، بمرور مئات السنوات .

ان (اليوتوبيا) منذ مدينة (افلاطون) حتى (هيلويز الجديدة) وما تبعها من مدن خرافية ، لم تثبت لحظة واحدة للتحقيق ، فهي تطلب فرداً معيناً . إنها تتخطى ما هو بشري ، لتنظر الى ما هو فوق بشري ، الى الآلهة ... انها تتطلب ان يكون البشر بلا سيئات ، افراداً اخلاقيين أتقياء أبرياء .. اي ليسوا بشراً ، وهي تعزل العادي : ذلك الانسان الذي يغش احياناً ، ويكذب لمصلحته ، وتعزل اللص والمجرم والمشوه والسكير والمتشائم ... وتحتضن كل القديسين والفلاسفة ، فهي نظرات عقلانية صرفة ، غير قابلة لان تفلت من قلب الكتب لتوسد فكرتها في الارض نفسها ...

ولما كانت (اليوتوبيا) تطلب فرداً نزعت عنه بشريته : اخطاؤه ، اختياراته ، سلوكه ، نظرته في الكون ، ودُمغ بالطابع : [يوتوبي] اي بلا ذات ، فانها تسقط في استحالة التنفيذ . فأن تعطى (للانسان الحق) كل مطالبه ، وان تفتح له آفاقه ، هو اشد هواناً لدى ذلك الانسان ، لو نزعت في الوقت نفسه ، حريته ، مقابل ما منحت له من عطايا وبركات .. هو اشد هواناً وضعة ، مما لو ترك معزولاً عن كل مطلب وحق ، وممنوحة له حريته في ان يفعل ما يشاء ..

ان عالم المثل المجردة يثبت فشله بعد كل تجربة ، فأبطاله المقترحون ليسوا انسانيين . إنهم أنصاف آلهة من (الاوليمب) ، ولا يمكن لما هو كامل ان يرتدي لباس السكارى والمجدفين ، واللصوص ، ان يرتد بشراً ، وعزلته هذه ، في قلب سمائه ، هي السبب نفسه في امتناعه ان يكون ارضياً مجاوراً لنا ، له ما لنا من رغبات ، ونزعات شيطانية ، وأهواء شريرة .. فاذا ما سقط عالم المثل ، فان عالم (جوركي) يسقط بالمثل .. فالدولة المقترحة ، والتي هي آخر سلالة الدول ، والتي تحلم بها طبقة العمال في الارض ، لا تستطيع ان تنقي مثاليتها ..

[1] مولد انسان (مكسيم جوركي) .

العدد القادم

يضم احدث الآراء والنظريات في مفهوم الفنون التشكيلية المعاصرة

ان البطل في الرواية الروسية يعتمد مكافحة العالم الخارجي، صراعه الوحيد، والفذّ لخلق انسانية جديـــدة وعصرية... وليس الانسان كذات مطلوباً في ارضها الجديدة، فيكفي ان يكون أذرعة وطاقة وقدرات .. كي تتهيأ للدولة ما تعمل من اجله:

فاما الارض.. إما الدولة الارض، وإما الدولة الرجال.. وقد اختاروا دولتهم!..

***

ان المأساة الحقة، هي ألا نستطيع خلق انفسنا كما نريد، هي ان تكمم افواهنا، وان تُفرض علينا حياة بعينها. هي ألا نشعر بذواتنا كما نريدها ان تكون، ألا نستطيع على الدوام تخطي ما هو عبوديتنا، والنزوع، ضد تيـــارات شائنة، لتحقيق ما هو نحن على شكل مندفع، وجديد...

فقد زُيِّف * للابطال صراع غريب وسخيف.. وكان ممكناً بلمسة غير طائشة نقل مركز الصراع من بطن الصخر والابنية، الى قلب الانسان نفسه، فليست القضية بين الفرد والاحجار (كعالم خارجي) بل بينه وبين نفسه. ان المأساة بين الفرد وذاته، وستظل هي القضية الاولى الواجب تحققها قبل ان يساق البشر لعبادة الابنية في شكل تطبيقات اجتماعية وخرافية... وهذا الدين الجديد الذي بُث بعناية في طريق البشر الراغبين بكل طاقة، في حيـاة غير مبتذلة وان كانت ثرية، هذا الدين قد وجد انصاراً عديدين يفدونه بارواحهم، فمن اجل تضليل الانسان وابعاده باستمرار عن نفسه، فهم يبـــدأون من حيث يجب ان ينتهي البشر: اقامة حدائق بابلية جديدة...

فقبل ان يعي البطل موقفه من الكون، وقبل ان يدرك اعداءه الحقيقيين، فانهم يضعون في يده مدفعاً، ويسخرونه في هدم الانصاب.. وبـدل ان يعيش الانسان حياته فانه يزحفها مكترفاً حتى الرقبة، في طريق عين له، ورُسمت له بدقة فائقة مواضع وقفاته، وكيفية تفكيره. ان البطل يمضي في حياة ليست له، غير مالك فيها دقيقة واحدة يسخرها لتأملاته، او لافعاله هو الذاتية. انه مدفوع حتى للتنفس، والتلويح بيده، والتعبير عن اساه بطريقة معينة، ليس عليه ان يبدلها او يرفض استعمالها..

ان البطل فيها (يشاهد انه يحيا)[1] وهو غريب امـام الاشياء الثابتة إزاءه باستمرار، وهو لا يستطيع ان يكون مسؤولاً عن كل ما يجري امامه، او حتى ان يفكر بذلك، وشيئاً فشيئاً، يصل للتواكل الميتـــافيزيقي، فقديماً كانت القضية مثارة على هذا النحو: (مسيّر ام مخيّر). اما الآن فقد قضي على الشطر الاخير، واصبحت القضية: «في طريق من، انت مسير؟» ورُفض ان يكون للانسان الحق ان يقف عملاقاً امام الاشياء والآخرين...

وليست العلاقة اخيراً، بين الذات والاشيـــاء، الا سقوطاً ضرورياً، ولا بد منه، فاذا كان وقوفنا أمـــام الاشياء يعني ضرورة جعلها قضيتنا الاولى والاخيرة، وترك قضية الانسان والحرية، فاننا سنصل يوماً كبشر الى مرتبة الاحجار نفسها.. فكلما اتصل وعينا بالاشياء [وهو لا يعي سوى الاشياء والآخرين] — ووقف عند حدها في ايمـــان مطلق بقوتها وخيرها الكلي؛ فانه يسقط في الآلية، ويصبح وجوده نفسه مبتذلاً كعاداته اليومية..

.. بطل واحد، في تاريخ الرواية الروسية، استطاع ان يمزق هذا الزيف الذي تأطرت داخله كينونته، وحبس فيه وجوده، ذلك هو [اندريه إيفانوفتش تنتيتنيكـوف[2]]، لقد ادرك هذا الملاحظ الفذ، عقم حياته التي كان مقـدراً له ان يقضيها في المكتب، بين صرير الاقلام الدائم، وسحنات الموظفين التي لا تتغير، ونفس الحياة الرتيبة الجامدة.. فحزم امره، وسب رئيسه، ثم اندفع الى الريف، ليستطيع إحياء ثلاثمئة قن.. وقد استطاع ان يرفض بشرف، كل عروض المدنية التي قدمت له في شكل صداقة أمير، اومصـــاهرة جنرال، او ملازمة مرقص..

وكم بدت له مذهلة كل رائحة للحياة جديدة، تنسمها في طريقه للريف.. وقد قبل ان يضع وجـوده فوق كفـه، مغامراً به دوماً، وقاذفاً به ضمن أطر الامكان.. وقـــد استطاع ان يعيش، حتى سقط.. مرة اخرى، في الرتابة.

***

* في ميسورنا ان ندال بانطباق هذا التزييف على قضية (البـــلور المحرق) فليست المشكلة قائمة بين العلم والانسان بالدرجة الاولى.

١ الوجودية (ديديه انزيو) ـ الكاتب المصري.

٢ الارواح الميتة.

فاذا ما اثيرت قضية الالية فان رواية [كونستان جورجيو] تبرز بوضوح ، لتدل على المصير البشري فيما اذا وضعت امكانية الحكم على البشر ، في يد (الروتين) ، في يد الميكانيكية ..

ان انساناً شريفاً ، تذوق العسل البري ، وإستلقى على العشب في ليل بلا نجوم ، وقبل عذراء فاتنة تحت سياج العليق ، وقدم خدمات رائعة لقس القرية ، عارضاً ما في طاقته من قدرات بشرية ، وممارساً لحريته ، ومتمسكاً ان يحيا كالبداوة نفسها في صميم نقاء الريف .. هذا الانسان الشريف ، يفاجأ بطاقة مدمرة ، تسلط فوقه هلاكها الرهيب فينحني بسذاجة ويدخل نطاقها ، وتصبح مأساته الذاتية ، قضية عالمية ، فكل عاصمة تحمل اسمه الذي اضحى رقماً ، فانهم لا يهتمون بصفاته الاساسية ، وبميوله وآرائه .. انه يكوّن لديهم (شيئاً) عرقل النظام . . جسماً غريباً نفذ بين التروس والعجلات ، فكادت الالة تقف .. كادت الدولة ان تنهار ...

فاذا ما اراد ان يتخطى [البحار السبعة] التي حبسوه خلفها ، فانهم قمينون بتركه يفعل بعد سنوات عديدة من التعذيب ، وسلخ ما هو ذاتية له . ولقد تجاوز المسكين الاسوار ، ولكنهم كانوا قد اتخذوا منه — ذلك الانسان الحر الشريف — سجينا الى الابد ، لقد ووجه رأساً ، وبصدمة مخيفة ، في قلب بدائيته ، بما احتاجت البشرية لمراجعة نفسها الف مرة كي تعيه ، وتفهم بشاعته :

لقد عرضوا عليه ان يتكفلوا أخيراً بطعامه وشرابه وملبسه ، على ان ينزعوا اسمه وذاتيته وكيانه ، وحريته .. على ان يصنعوا منه ساعة نابضة ، تدار وقتما يرون وتتوقف في اللحظة التي يشاءون ! ولم يفتح المسكين فمه بكلمة وهم يرددون :

« .. ابتسم .. إبتسم .. ابتسم .. إبتسم .! ! »

لقد حتموا عليه — حتى ان يبتسم .. ان يغش ذاته ، مضيئاً ملامحه بفرحة وضاءة نادرة ... وقد انحنى ذلك الانسان الشريف ، كيما يستطيع ان يحيا حياتهم في عالم يملكون فيه كل شيء .. كل شيء ، حتى اذا ما امروه بالموت ، فانه لن يرفض طلبهم .. بل سيرقد في سكون ثم يموت في سلام ...

***

ان القضية تتخذ لها وجهاً آخر .. وجهاً اشد انسانية ، وصلة بمصيرنا كبشر ، ووضعيتنا ازاء ما هو جامد ورتيب وميكانيكي ، كانعكاس على الذات نفسها من العالم الخارجي.

ان القضية تصبح : مأساة الوضع البشري امام نفسه ، اما ان يصبح البشر سادة انفسهم ، واما ان تعود البشرية مرة اخرى ونهائية ، كي تسهم في خلق طوفان من العبيد والاقنان ، ثم يصبح الوضع :

اقامة مدن حجرية كبعلبك والكرنك والاكروبول .. بدون حاجة لوجود الانسان ، الذي يصبح وقوداً تستهلكه جهنمية الآلة ...

القاهرة — محيي الدين محمد

الآداب

من الادارة

- **بهذا العدد تنتهي سنة « الآداب » الثالثة . فيرجى ممن يودّ الاشتراك او تجديده إبلاغ الادارة .**
- **قيمة الاشتراك السنوي :**

في سوريا ولبنان : ١٢ ليرة لبنانية او سورية
في الخارج : جنيهان استرلينيان او خمسة دولارات
في الولايات المتحدة: عشرة دولارات
في الارجنتين : مئة وخمسون ريالاً

- **الاشتراك يدفع سلفاً، ويبدأ من اي عدد يريده المشترك.**
- **لدى الادارة عدد من مجموعات الاعوام الفائتة تباع كما يلي :**

مجموعة السنة الاولى ٢٥ ليرة لبنانية او ما يعادلها
« « الثانية ٢٠ « « « «
« « الثالثة ١٥ « « « «

ولدى الادارة ايضاً مجموعات مجلدة تجليداً متقناً ثمن كل منها يزيد خمس ليرات لبنانية او ما يعادلها.